ومضة في توحيد الله
والذود عن نبيه
صلى الله عليه وسلم

إعداد المعلم
إبراهيم محمد عيسى أحمد



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى حبيب الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

إلى الذين تعلمت منهم من شيوخنا الأجلاء .

إلى كل من أهدى لي نصيحة أو معروفا .

إلى والديَّ.

إلى زوجتي وابنيَّ .

أهدي هذا العمل .

والله ولي التوفيق .

إبراهيم محمد عيسى أحمد

المقدمة

الحمد لله الذي يخلق بلا لمس ولا تفكير و ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) سورة يس.

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله وصحبه وبعد :-

فهذا الكتاب أعددته في توحيد الله عز وجل وفي الدفاع عن نبيه محمد صلى الله عليه وعلى اله وصحبه وسلم ، ذلك لأن التوحيد هو الحقيقة التي بعث الله بها كل رسله من نوح إلى محمد عليه وعلى نوح وجميع الرسل الصلاة والسلام .

وهذا لأن الله لا يقبل عبادة من غير توحيد ، وكذلك لا يقبل عبادة من سبَّ نبيه عليه الصلاة والسلام .

ونحن المسلمون حين ندافع عنه ﷺ ليس ذلك لأننا نحبه فحسب بل لأن النبي ﷺ يحب أن يدافع عنه المسلمون .

وأذكر في هذا المجال أنه في غزوة أحد لما انكشف عنه المسلمون ولم يثبت في الدفاع عنه إلا القليل ، وفيهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، نثر رسول الله ﷺ كنانته ، وهو يقول لسعد بن أبي وقاص : (ارم سعد فداك أبي وأمي) وأيضاً أذكر حبه للدفاع عنه أن حسان بن ثابت رضي الله عنه كان يدافع عنه بالشعر فدعا له النبي ﷺ وقال : (اللهم أيده بروح

القدس) فكان جبريل عليه السلام يؤيد حسان بن ثابت في أشعاره التي يدافع بها عن النبي ﷺ .

إن الدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام لا يجئ إلا من أناس صادقين في محبته ، لذا إذا لم نكن صادقين في محبته والدفاع عنه فالنحذر من أن يكون هو عليه الصلاة والسلام خصمنا يوم يقوم الحساب إذا نحن نصرنا عليه عدوه بالسكوت أو بالتخاذل عن نصرته ، ويجب أن لا ننسى أن بين صفوفنا الكثير من المنافقين الذين يخذلون عن نصرته فلنحذرهم .

إني على يقين أنه من وحد الله ولم يعلق قلبه بأحد سواه في توكله ، في دعائه ، في استغاثته ، في ذبحه بل وفي كل صغيرة وكبيرة في عبادته .فإنه بهذا التوحيد سيكبر الله في نفسه ، وإنه بهذا التكبير سيصل إلى الحب العظيم حب الله ورسوله .

إنه سيحب الله ورسوله حباً يستطيع أن يعيشه ، ولكن لا يستطيع أن يوصفه ، وإن وصفه بشيء فإنه سيصفه بأنه الحياة في الجنة .

إنه بهذا الحب العظيم سيحيى حياة طيبة ولو كان فقيراً وإنه يستطيع أن يهب هذه الحياة الطيبة راضياً في سبيل من أحبهما وأحسب أنه سيتم القبول له ذلك لأن الله طيب يقبل الطيبين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

إبراهيم محمد عيسى أحمد .

أبدأ في توحيد الله عز وجل وأسأله التوفيق في هذه الومضة وأقول: - أننا إذا طوفنا قلوبنا لإدراك المطلوب من هذه الكائنات التي يتشكل منها الكون، وهو الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى نجد أنه سبحانه ربط الأحياء في الأرض بالجمادات التي في السماء. إن هذا الترابط الكوني البديع الذي يتألف منه الكون دليل على أن خالق هذا الكون واحد، فإذا أردنا أن نأتي بأمثلة لهذا الترابط الكوني للدلالة على وحدانية الله فإنها ستكون أمثلة بقدر هذا الكون كله، لذا سأكتفي بإيراد أمثلة سهلة وبسيطة يجدها كل واحد هنا في نفسه ويبصرها بمقاييس العقل التي أودعها الله فيه، هذا في اعتقادي، وإن هذه الأمثلة التي ستأتي بعد هي في حقيقتها توضح بوضوح تام إن شاء الله بأن كل شيء في هذا الكون موضوع في مكانه الصحيح، وان العبث والباطل لا وجود لهما فيه أبداً، بل أرى وراء هذا الكون وجوداً للحق متجلياً في حكمة بالغة وخبرة عظيمة. يمكننا رؤية هذا الحق في الأمثلة التالية: -

١- إذا نظرنا إلى أنفسنا ونحن نخلق في الأرحام فإننا نرى بوضوح تام بأن الله سبحانه وتعالى خلق لنا أعيناً ونحن في الأرحام علماً بأننا لا نحتاج إليها في الأرحام، لكن الله علم أننا سنحتاج إليها

عندما نخرج من الأرحام لنعيش خارجها، فخلقها بالحق الذي كنا لا نعلمه ونحن في الأرحام. علم الله أيضاً إن هذه الأعين لا تبصر في الظلام فخلق بعلمه الشمس من قبل لتهبها النور والضياء. أنا أرى في هذا الترابط المحكم الحكيم بين الشمس كجماد في السماء، واعين الأحياء في الأرض دليل على أن خالق الشمس والأحياء واحد.

٢- إذا نظرنا إلى أنفسنا أيضاً، ونحن في الأرحام نرى أن الله سبحانه خلق لنا الجهاز التنفسي ونحن لا نحتاج إليه في الأرحام ، لكنه سبحانه وتعالى علم أننا سنحتاج إليه عندما نخرج من الأرحام لنعيش خارجها فخلقه لعلمه أننا سنحتاج للهواء خارج الأرحام. إنني أرى أيضاً في هذا الترابط المحكم الحكيم بين الجهاز التنفسي والهواء أن خالق الجهاز التنفسي والهواء واحد.

في هذا الشأن سؤال فبماذا نجيب إذا طرح علينا ونحن في الأرحام ؟!

السؤال هو :-

هل للأعين والجهاز التنفسي أهمية بالنسبة إليكم ؟ بالتأكيد سنجيب بالنفي لأننا نجهل تماماً أهمية الأعين وأهمية الجهاز التنفسي في العالم الذي سنعيشه خارج الأرحام.

إن الجهل بحقيقة العالم خارج الأرحام والذي تتجلى فيه أهمية الأعين والجهاز التنفسي ينطبق تماماً على جهلنا بحقيقة عالم الدار الآخرة الذي تتجلى فيه أهمية العبادة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وحج وحسن معاملة وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

هذا وبعد أن تجولنا مع الأبصار والجهاز التنفسي فالنعرج إلى شيء مهم وعظيم جداً، وهو أن الحق سبحانه وتعالى علم أن الكائنات الحية وغيرها تحتاج لمقر، فخلق الأرض لتكون قراراً لها، وبهذا الترابط المحكم بين الكائنات والأرض التي تقلها دليل على أن خالق الأرض ومن عليها واحد.

هذا في اعتقادي كمسلم، وأعتقد بأنني لم أكن أنا الوحيد الذي أبصر في نفسه هذه الومضة ومضة الترابط الكوني فربما هنالك الكثيرين الذين أبصروها في نفوسهم .لذا فأنا لا أعلم أحداً بل أذكر لأن الذكرى تنفع المؤمنين وإن هذا الترابط المقصود في الكون بين الأحياء في الأرحام وبين ما غاب عنها، وهو عالم الحياة الدنيا خارج الأرحام لدليل على أن خالقها يعلم الغيب والشهادة. الغيب يتمثل فيها هي التي في الأرحام بالنسبة لعالم الشهادة وهو عالم الحياة الدنيا فجهزها بما يناسبه من أجهزة، والغيب العظيم و هو عالم

الدار الآخرة، فوجهها إلى ما يناسبه من عبادات. إن هذا الغيب الذي في الأرحام وغيب الدار الآخر، وعالم الشهادة في هذه الحياة الدنيا يعلمه الله كشيء واحد، إن هذه العوالم الثلاثة حاضرة الآن أمام الله كشيء واحد ، بل إن ماضيها وحاضرها ومستقبلها حاضر الآن أمام الله كشيء واحد - فالله واحد وعلمه واحد، فلا يوجد أحد يشاركه في ملكه ولا في صفة من صفاته ، جل الله وتعاظم وتعالى علواً كبيرا. إذا علمنا أن الله هو خالق هذه الشبكة الكونية ومالكها فإن كل شيء داخل هذه الشبكة الكونية يعتبر جزء منها، ومخلوق لله سبحانه وتعالى بما في ذلك رسل الله الكرام وفيهم موسى وعيسى ومحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، فهم جميعاً داخل هذا الكون وربطوا به أكلاً وشرباً كذلك فهم من خلق الله، والله ربهم ورب الكون الذي تكون من إرادة واحدة. شيء مهم جداً وجدير بأن يذكر، وهو أن هذا الكون بجميع ما فيه يعتبر عبداً عابداً لله سبحانه وتعالى بالفطرة، ذلك لأن الله قال له كن فكان، ولم يمتنع وان عدم امتناعه هذا يعتبر طاعة لله سبحانه وتعالى والطاعة لله هي عبادة له سبحانه وتعالى. إن هذه العبادة الفطرية الكونية يمكن أن نحسها في أنفسنا كبشر، وكجزء من هذا الكون،

ذلـك إذا أخـذنا أنفسـنا كـأرقى المخلوقـات لضـرب الأمثـال، فـإذا أخذناها كمثال أنا أرى أن الله خلقنا أجساداً ، ولابد للجسد من أن يأكل الطعـام، فإذا جعنا فإن هـذا الجوع أمر فطري ركـزه الله في نفس كل واحد منا، وهو عبارة عن أمر الهي بمعنى أن يا إنسان إن جسدك يحتاج للطعام فكل،واستجابة لهذا الأمر الإلهي الفطري يأكل الإنسان الطعام، وإلا عذب جوعاً وبالفطرة نفسها. ولا أظن أن هذا التجويع عبارة عن ظلم واقع على الإنسان من الله كـلا بـل هو من فطرة الإنسان، وبدونه يكون الإنسان ناقصاً في فطرتـه . إن طاعة الإنسان للأمر الإلهي الفطري بأكل الطعـام عبادة لله سبحانه وتعالى بالفطرة، ولا يخرج عن هذه الطاعـة أي بشر مؤمناً كـان أو كافراً، والفطرة هي سنة الله في خلقه، فالكل عبيداً له بالفطرة. إن عبادة الله بالفطرة لم تكن في الأكل وحده بل في الشرب، في الجنس بل وفي كـل مـا تحتاجه النفس وتشتهيه. وأنـا أعتقـد إن هـذه الحوجة وهـذه الشهوة جعلـت النفس غير مستقرة لأن رغباتهـا متجـددة ، فهي كل ما شبعت من رغبة فسرعان ما يعود إليها الجوع للرغبة نفسها بطبيعة الحال لذا نجد أن النفس متقلبة بين الحوجة والاكتفاء بين الشبع والجوع ويجب أن لا أنسى أن هنالك رغبات لا يستطيع

الإنسان إشباعها لعجزه عن ذلك فنجده واقفاً عندها أو لربما يقف عند واحدة منها قلقاً مضطرباً السنين الطوال يحاول الظفر بها وإشباع نفسه منها، ولكنه لا يستطيع، فيصير بذلك عبداً لهذه الحوجة، عبداً لهذه الشهوة، إني أعتقد أن هذا مخالفاً للتوحيد، وقد قيل إن الإنسان عبداً لحاجته، فالحقيقة أننا نتعذب لأننا نرغب. هنالك شيء خطير جداً يجب أن يذكر وهو الفراغ المطلق الذي يعيشه الإنسان عندما يشبع نفسه من جميع رغباتها، من جميع شهواتها و ذلك بالإسراف في إعطائها كل ما ترغب وتشتهي أن تيسر له ذلك، انه بهذا الإسراف في العطاء سيقتل هوى نفسه ويموت الهوى تصير نفسه فارغة من شهواتها للأشياء، ولم يكن للذة الهوى للأشياء فيها وجود، لذلك فهي تتمنى في كل حين أن يحيا فيها هواها مرة أخرى لتعود إليها لذة الشهوة للأشياء مرة أخرى. إن الإنسان عندما يعيش الفراغ الأليم يموت الهوى بسبب إسرافه في الملذات التي يتعاطاها متى ما اشتهاها أراه يلجأ إلى السياحة في البلدان، أو يلجأ إلى ممارسة الهوايات أو يلجأ إلى أشياء وأشياء، لملأ ذلك الفراغ، ليصل إلى السعادة كما يظن، وهي سكون النفس وطمأنينتها، لكن الحقيقة انه لن يجد عندها شيئاً

إذا كانت بغرض إحياء الهوى. لذا أعتقد أن الإسراف فيه طاعة للشيطان وكان الشيطان لربه كفوراً، إن الله حبيبنا الأعظم خالق النعم، وملقي الرحمة في قلوب العباد ليتراحموا لم يكن راضياً أن يعبد هكذا بالفطرة عبادة مطلقة لأنه يعلم أن إطلاق الفطرة سبيل سيء، فهو يريد أن يعبد عبادة هو رضي عنها، وهي السبيل الصحيح والحسن الذي يوصل إلى السعادة وهل يريد الله شيئاً من عبادته غير إسعاد النفس البشرية؟.

ولما كانت الأنفس البشرية كلها لا تستطيع أن تعرف الطريق الصحيح المفضي إلى عبادته الصحيحة، اختار من بينها نفوسا طيبة، هي أنفس رسله الكرام رسلاً اختارهم بعلم، وانزل عليهم الكتب نوراً من عنده ليخرج الناس من وهدة شقاء ظلمات هوى النفس المذل، وعبوديته الأليمة إلى نور السعادة المشع بالدفء والحرية والحياة وكان القرآن الكريم هو آخر الكتب المنزلة ومهيمن عليها، انزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ليحرر به الإنسان من عبادة المخلوقات التي تموج هوا وصوراً معبودة منفعلاً بها القلب قلب الإنسان من قبل التنزيل

إلى غايته العظمى وهي تحرير الإنسان من الشرك إلى توحيد الله وعبادته .

ولما كانت العبادة بالعقل فأنا أعتقد أن هذا الكون بكل ما فيه من محسوسات ما هو إلا عقل خارجي للإنسان فإذا انفعل عقله الذي أودعه الله فيه (وهو العقل الفعال) بأي صورة من صوره سواء أكانت هذه الصورة صورة إنسان أو نجم أو نبات أو أي صورة من صوره، فإن هذه الصورة هي العقل المنفعل في العقل الفعال وهي المعقول، وكذلك الصور المنفعلة الأخرى من كلام وذوق وغيره ، وقد وصل إلى ما وصلت إليه في هذا الاعتقاد أرسطو طاليس : إذاً إذا كانت هذه الصور المنفعلة موافقة لما جاء به النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فهي عبادة لله عز وجل ، وإذا كانت مخالفة لما جاء به فهي عبادة للهوى أو الشيطان، وهل العبادة شيء آخر غير حضور العقل وانفعاله بما فيه إيماناً به؟

وتحضرني في هذا المجال أعني مجال العقل المنفعل والعقل الفعال حقيقة توحيدية مهمة وهي : أن الله لم يكن شيئاً كونياً أي لم يكن الله جزءاً من هذا الكون المحسوس وغير المحسوس، لذا يجب أن لا نتحرى رؤية الله وعبادته بهذه الرؤية، فإن هذا غير ممكن الحدوث

بالنسبة لنا وان كنا إتباع النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الدار الدنيا، لأن الله لم تكن له صورة تنطبع على العقل فنعبده بها، جل شأنه وجلاله، وعظم كبرياؤه، فحسبنا في عبادته ما جاءنا به رسوله من ذكر كريم والحق إننا إذا أفرغنا قلوبنا من هواها وملأناها بما جاءنا من ذكر فإننا سنذوق طعم الحرية وسنعيش شرفاء، ذلك لأن شرف العقل يشرق المعقول، وشرف الذكر يشرف المذكور، وهل هنالك مذكور أجل وأكبر من الله؟

أنني أرى عندما نعيش شرفاء بذكر الله سنحيا حياة طيبة بذكره، وذكره هو حبه وحب من جاءنا بذكره. أن هذا الحب هو الشرف العظيم الذي تفيض منه فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق وحب الناس وقضاء حوائجهم والصبر على أذاهم. ماذا يريد الله منا من ذكره وحبه غير أن نعيش أحراراً مطمئنين وإخواناً متحابين؟ إن بعض الناس تأبى نفوسهم أن تترك حب العظمة والسيطرة على الآخرين وإيذائهم، فليحذر هؤلاء من فرض ذواتهم على قلوب الناس بصفة عامة وعلى قلوب الذين جردوا قلوبهم لله بصفة خاصة، فليحذر هؤلاء من أن يجعلوا من ذواتهم شريكاً لله في قلوب العباد، وذلك بفرض ذاوتهم على العباد من أجل أن يكونوا

هم شيئاً مذكوراً ، فليحذر هؤلاء من نقمة الله وأخذه، لأنه هو العظيم منزل الذكر ليذكر، وخالق النعم ومانحها الذي ينبغي أن يحمد. إن أهل الهوى الذين يتبعون الشهوات يظنون أن الذكر الحكيم الذي أنزل ما هو إلا مانعاً يمنع الناس من التمتع بنعم الحياة، ومعذباً لهم إن هم استجابوا له، والحق أنهم كذبوا في ظنهم هذا لأن الله أنزل بعض الآيات لا للمنع المطلق بل أنزلها ليحمي بالإيمان بها مكتسبات وحقوق الناس من بعضهم البعض والتي اكتسبوها بكدهم وصبرهم، وأنزل بعض الآيات كذلك ليطهرهم بالبعد عن تناول الخبائث، لأن الكون ليس كل ما فيه من الطيبات بل فيه من الخبائث أيضاً، وإلا كان كوناً ناقصاً لأن حكمة الله في هذا الكون أن يقوم على الزوجية وهي الضد. ولما كان الإنسان لايعرف الطيب من الخبيث وهو وسخ الكون وغدارته فقد أنزل الله تلك الآيات تبياناً للطيب والخبيث، وذلك رحمة منه سبحانه وتعالى، فيجب علينا أن نقابل هذه الرحمة بالقبول وهو الشكر لا بالرفض وهو الكفر بهذه النعمة. ويجب أن نعلم أن هذه الآيات بل وكل آيات الذكر الحكيم هي روح من أمر الله سبحانه وتعالى وليس مجرد كلمات ميتة فهي الروح التي تتخلل

قلب المؤمن فتحية كذلك وأن كل الصور الكونية التي وردت فيها لم تكن صوراً ميتة بل هي صوراً حية تدخل في النفس سروراً وانشراحاً إذا تلونها وتأملناها إني أعتقد ذلك مثلاً في قوله عز وجل ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ سورة عبس .

وهنا في هذه الآيات نبصر لوحة حية - مطر مُنزل وأرض تشق وحبوب تُنبت وكذلك العنب ينبت وأيضاً النبات الطري الذي تأكله البهائم ينبت والزيتون والنخل والحدائق الملتفة الغليظة أشجارها وتنبت أشجار الفاكهة أيضاً، هذه اللوحة الرائعة التي حوت صور تلك النباتات لا نبصرها كلوحة ميتة ثابتة وقفت في عمر معين كما في صور اللوحات التي نشاهدها، بل نبصرها لوحة حية فيها صوراً لنباتات حية ينزل عليها المطر وهي في بداية تكوينها متشققة الأرض عنها وبعد هذا الانشقاق نبصر فعل الرب فيها وهو تنميتها شيئاً فشيئاً حتى يبلغها كمالها المنشود ، فتمتلئ قلوبنا بتعظيم

الرب وحمده الذي يرزق البر والفاجر سبحانه ، وسبحانه خالق المعدة والأمعاء للإنسان وهو في البطن قصداً منه عز وجل لتحوي ويتم فيها هضم الطعام الذي أعده له في الخارج بإذنه ، ومع جمال اللوحة نعيش الربوبية في الخلق والرزق . إن هذا القرآن عند تلاوته وتأمله سيأخذنا بعيداً جداً عن هموم الدنيا وقلقها وأحزانها في معراج عظيم إلى الله ننسى على أثره الآلام والآمال، وخصوصاً إذا كانت هذه التلاوة في الصلاة ذلك لأن الصلاة هي أسمى معاني الخروج عن الذات وتفريغ القلب عن هواه وملأه بذكر الله، وأنا أقول صادقاً إن الإنسان إذا خرج عن ذاته ووقف إمام ربه خاشعاً في صلاة تتكرر في اليوم خمس مرات بخشوعها، فإن هذا الخروج والخشوع سيستمر إلى أوقات عمره كلها، وبذلك يتحقق عنده معنى إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، هذا لأن الخروج عن الذات وتفريغ القلب عن هواه يعني عدم انشغاله بالهوى بما في ذلك الفحشاء والمنكر، وبذلك يشعر الإنسان بعبوديته لله، وانه بهذه العبودية سيحيى حياة طيبة ومطمئنة وتلك هي السعادة، وهل السعادة شيء آخر غير طمأنينة النفس وسكونها؟ لكني أعتقد أن هنالك شهوات أخرى غير

الشهوات الحسية اللذيذة أنها شهوات ساخنة ومدمرة تستذل الإنسان وتشقيه هذه الشهوات المدمرة هي شهوات الحقد والغضب وحب الانتقام فينبغي على الإنسان أن يتعالى عليها بالمبدأ العظيم مبدأ نكران الذات الذي يفرغ الذل والعذاب من القلب ويريحه من جولاته في تدبير الانتقام ، وبالإضافة إلى نكران الذات، على الإنسان أن يتحلى بصفة الصبر والعفو وكظم الغيظ الذي يضبط النفس وإلا فليفوض الأمر لله لأنه هو العدل البصير بعباده ، القوي العزيز ذو الانتقام.

أيضاً هنالك من المصائب ما يجعل الإنسان يعيش في دوامة من الغم والهم والحزن، فعليه إن يجلو ذلك بالمبدأ العظيم مبدأ نكران الذات الذي يحرر النفس من كل ما يستعبدها من المصائب وبالإضافة إلى الحرية التي يجدها الإنسان من ذلك النكران عليه أن يحافظ على تلك الحرية وذلك بزيادة مشكاة الإيمان التي في قلبه اشتعالاً ونوراً وذلك بتذكره إن الله كتب تلك المصائب من قبل وقوعها لذا انه لا هم ولا غم يحمى من أمر حتم الله وقوعه . قال الله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا

عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٢٣) سورة الحديد .

فبهذا وبتحرير الإنسان لنفسه وإيقاد مشكاة الإيمان في قلبه باتباع اثر النبي فإنه بذلك يكون قد هُدي إلى طريق الكمال ولا يظن انه كامل فان الكون بكل ما فيه ناقص لأنه نشأ من العدم، وان نشوئه من العدم لا يعني انه انشأ نفسه لأن المعدوم لا يوجد نفسه بل يحتاج لمن يوجده وأن يكون هذا الواجد متصفاً بصفة الحياة لأن الحي هو الذي يستطيع أن يوجد الموجود. لذا يمكن القول بأن الكمال المطلق هو للحي الذي لم يسبق حياته عدم، فإذا كان كذلك وهو كذلك فهو موجود حي بلا بداية فهو الأول الظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء، فهو الواحد الذي كان ولم يكن معه شيء، هو الله الذي أنشأ هذا الكون من العدم سبحانه كما ذكرت هو الحي، ولكنه الحي بلا بداية لوجوده وحياته ولا نهاية، فهو الحق الثابت الذي لا يتغير منذ الأزل وإلى الأبد، وان الأزل والأبد في حقه شيء واحد اسمه (الآن) لأن الله واحد في ذاته لا يتجزأ ولا تتجزأ صفاته، لا أقول إن الله يسمع الآن ولكنه لا يسمع الأصوات التي صدرت في

الماضي ولا يسمع الأصوات التي ستصدر في المستقبل، كلا لا أقول ذلك بل أقول مؤمناً انه الآن يسمع الأصوات التي صدرت في الماضي، ويسمع الآن الأصوات التي ستصدر في المستقبل كسمعه للأصوات الصادرة الآن، يسمعها جميعها في آن واحد بلا اختلاط، فكلها بل وكل ما كان في الماضي وكل ما سيكون في المستقبل وكل ما هو كائن الآن حاضر أمامه الآن لا يغيب عنه شيء سبحانه، فالله بكل صفاته حاضر الآن بلا زمان ماضي مر عليه ولا مستقبل يمر عليه بل هو بدأ الزمان يقلب الليل والنهار وهو في حال الكمال بلا زمان سبحانه وتعالى، ولما كان سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل كشيء واحد بهذا يمكن القول أن القدر هو من علم الله المحيط وان إرادته هي التي خصصته وأمر القلم أن يكتبه في اللوح المحفوظ، وان قدرته هي التي تنفذه وتبديه في الأوقات المحدودة، فعليه يجب التوكل على الله الحي من هم المستقبل وطواف القلوب حوله لأن الهم والطواف حول المستقبل لا يكشفان لنا عن شيء خبأه الله عنا في غيبه، ولا يأتيان بشيء لم يكتبه الله لنا، فلنريح القلوب عن ذلك، ولنحسن الظن بالله وندعوه انه المجيب والقادر على كل شيء.

كما ذكرت أن الله كامل، كذلك أن كل شيء عظيم إضافة إليه فهو كامل كالرسل والأنبياء، وان من تعظيم الله وإجلاله يجب حبهم وخفض جناح الذل لهم، وعدم الإساءة إليهم ولنكن على رهبة تحمينا من إساءتهم وورع يحول بيننا وبين أي كلمة مشبوهة مريبه فيها شبهة الإساءة إليهم عليهم الصلاة والسلام، وإني إذ أقول هذا لا أقوله بصفة آمرة بل بكل احترام وود أقوله للذكرى، وليس غريباً أن تكون هنالك كلمات وإشارات ورموز تحمل عداءً للأنبياء الكرام ورسالاتهم، وليس منا بزمن بعيد ما تعرض له نبي الرحمة رسولنا محمد ﷺ من إساءة بالغة لشخصه ودينه الحنيف، وأنا على يقين بأن حسن الظن بالله خير.

لذا أحسب أن الله سيجازي بالخير كل من دافع عن نبيه الكريم ولو بشطر كلمة

ربما يقول قائل : أن محمداً قد مات لذا فإن الإساءة لا تؤثر فيه فلماذا الدفاع عنه ؟ أقول إذاً فلماذا يسيء المسيئون إليه طالما الإساءة لا تؤثر فيه وهو ميت ؟

إن الكره له والحقد الدفين عليه منذ أن بعث هو الذي يدفعهم إلى الإساءة إليه إلى ما شاء الله، ومن قال أن الإساءة كانت تؤثر فيه في

حياته، كلا والله إن الإساءة وإن آذته وأحزنته فإنها لا تؤثر فيه تأثيراً يدفعه للانتقام لنفسه، لكنه كان حين يعلم أن الدين هو المقصود في شخصه حينها قد علم الذين ظلموا أي منقلب انقلبوا. إن الدافع الذي يدفع الكافرين إلى الإساءة إليه والسخرية به بالإضافة إلى كرهه والحقد عليه فداه أبي وأمي هو الطعن في نبوته ﷺ والهدف الذي وراء ذلك هو إطفاء نور الله، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون. هذه ذكرى فالنذكر الله ما استطعنا ونوقر وننصر رسوله ﷺ - رسول لين ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق وقد أقام الله به الملة العوجاء، رءوف رحيم، عظيم لا ينتقم. بل يعفو ويصفح، أدبه ربه فأحسن تأديبه وآواه، فقد ولد وحيداً حيث لا أخ يلاعب ويدافع ولا أخت تمسح الدمع وتمدح، نشا يتيماً حيث لا أب يعطي ويحمي، ولا أم تعين وتعطف، عاش بلا أسرة حقيقية تؤويه ويجد عندها الحب الفطري والحنان الأسري.

علم الله برحابة صدره الحنون وطهارة قلبه الودود الذي لا يميل إلى سوء الأخلاق والشر أبداً، فشق صدره وأكمل طهارة قلبه بغسله بركة منه سبحانه وتعالى ليعينه على تحمل ما بعث به ﷺ. لاقى من قومه أصنافاً من الأذى - تدافعه القريب والبعيد - أوذي في عرضه

فصبر، أوذي في نفسه فغفر، ضرب، عذب، خنق، وقيل مجنون بل كذاب وهو في كل ذلك لا يقابل المسيء بالإساءة، فقد ناداه ملك الجبال بعد أن ناداه جبريل من فوق السحاب : (يا محمد قد سمع الله قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك لتأمرني بأمرك فما شئت، وان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين) فقال صلى الله عليه وسلم : (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً).

قربه ربه وألقى في قلوب المؤمنين محبته حتى قال فاتح القادسية سعد بن أبي وقاص (والله لو أمرنا أن نخصي أنفسنا لفعلنا). إن رسولاً بلغ هذه المنزلة في نفوس المؤمنين ومنازل أخرى كثيرة من منازل الحب والطاعة هل يظن أحد أنهم يرضون بالإساءة إليه؟ نعم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أخزن موته المسلمين حزناً بالغاً، فبكته ريحانته فاطمة الزهراء ونعته لجبريل، وعلى بن أبي طالب صار لا يستطيع الوقوف، وعثمان بن عفان صار لا يستطيع الكلام، وعمر بن الخطاب فقد صوابه، فهذا حال الأقوياء الذين صاروا خلفاء من بعده فكيف يا ترى صار حال الخاصة والعامة من ذلك المصاب الجلل، وأبو بكر الصديق كان في أرض له فلما

بلغه الخبر جاء مسرعاً والحزن يعصره قلبه عصراً فلما دخل الحجرة الشريفة وتأكد من موت رسول الله صلى الله عليه وسلم انكب عليه وقبله وقال : (طبت حياً وميتاً يا رسول الله). ثم خرج للناس وقال : (أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يبعد الله فإن الله حي لا يموت وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقيبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين). فأعاد للصحابة صوابهم رضي الله عنه وعنهم ، ثم غبروه عليه السلام في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعنهم، وبذلك فارقوا الوجه الطلق الودود، فارقوا من هو أرحم بهم من والديهم وأشفق وأحلم ، فارقوا من إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، فارقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واسترجعوا (إنا لله وإنا إليه راجعون). فارقوه وحزنوا على فراقه ولكن هنالك حقيقة شدت قلوب المسلمين بأنه يرد السلام على من سلم عليه صلى الله عليه وسلم - السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . مات نبي الله عليه الصلاة والسلام ، ولكنه سيظل مذكوراً كلما ذكر المؤمنون الله بالصلاة والسلام عليه، سيذكرونه بل ولن يبخلوا بأن يقدموا أرواحهم فداءً له إذا دعا داعي الفداء مثل ما أنهم ما بخلوا ولن

يبخلوا بالصلاة عليه كلما قال قائل: (محمد رسول الله) وسيظل اسمه محمد رسول الله طاهراً مرفوعاً مع اسم الله القدوس ما دامت كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولن يطاول هذه الكلمة متطاول ولن يدنسها مدنس لأن قدسيتها ثابتة في قلوب المسلمين وهي الخيط الرفيع الذي يصلهم بالله الحي القيوم. مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفارق الحياة الدنيا وصحابته رضي الله عنهم ورفع إلى الرفيق الأعلى، ولكنه ترك دينا كاملاً حياً يؤتي أكله كل حين بإذن ربه، وان الله قادر على حماية هذا الدين وعلى حماية مقام نبيه عليه السلام وحده كما حمي بيته وحده بالطير الأبابيل عندما لم يكن في ذلك الزمان للمسلمين في الدنيا وجود، ولكن عندما صار المسلمين في الدنيا وجود بإذنه كلفهم بحماية هذا الدين كله، وأمرهم بأن لا يعتدوا، وان يجادلوا بالتي هي أحسن، وان يردوا الظلم كذلك بالتي هي أحسن وإلا فبالمثل، ووصاهم بتقواه وأمرهم بالعدل، بهذا التكليف المقدس سعد كل مسلم قوي وتقبله بسرور عظيم. وختاماً فليستبشر كل مؤمن بما جاء في الذكر الحكيم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. غافر (٥١)

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٢٠٣٨
ردمك: ٩٩٦٠-٥٧-٤٨٥-٧